فلسطين
التحديات الراهنة

كيف نشأت... كيف تطورت؟

فلسطين
التحديات الراهنة

كيف نشأت... كيف تطورت؟

د. محمد الهندي

الطبعة الأولى

أيلول ٢٠٢٢

حقوق الطبع محفوظة

مقدمة

التاريخ هو سجل الماضي، ومعرفة الأحداث التي وقعت فيه بالفعل. ودراسة التاريخ ليست من أجل المعرفة العلمية أو التسلية، بل من أجل استخلاص العبر وتعلم الدروس، ولا ندرس التاريخ تحذيرًا من حماقات الإنسان وجرائمه، وإنما أيضًا تذكارًا للنفوس المبدعة لنأخذ من التاريخ العظة.

والقرآن الكريم يلحّ على أتباعه بدراسة تاريخ الأمم السابقة، للنظر والتأمل في مصائرها: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ (غافر، ٨٢)، وكيف أن ما نزل بساحتهم من عقاب ودمار وزوال حضارتهم كان بفعل تصرفاتهم وحماقاتهم، حتى لو امتلكوا من القوة والشدة والكثرة والتأثير، ﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ (غافر، ٨٢). فهذا لم يغنِ عنهم شيئًا عندما خالفوا القوانين التي أنشأها الله، وجعلها حاكمة لحركة البشر على الأرض، بغض النظر عن دينهم وعرقهم ومذهبهم، عربًا وعجمًا، مسلمين وكفارًا. وهذا هو درس أُحُد عندما ظن المسلمون بعد نصر بدر المعجز أن النصر حليفهم، لكونهم مسلمين، وقالوا أمام هزيمة أحد ﴿أَنَّى هَذَا﴾ (آل عمران، ١٦٥)، فجاء الرد أنه بسبب مخالفتكم وأطماع بعضكم، ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ

أَنْفُسِكُمْ﴾ (آل عمران، ١٦٥)، و﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ (الشورى، ٣٠)، لأن منكم من يريد الغنيمة ويخالف خطة المعركة.

ولأن الحضارة التي تنشئها أمة من الأمم ما هي إلا صيرورة تضبط سيرتها قوانين حاكمة لا تحابي أحدًا، فإن راهن أي أمة مرتبط بتاريخها، ولا يمكن فهم حاضر أمة من الأمم إلا في ضوء ماضيها. وهذه هي فلسفة التاريخ، والتي هي قراءة المرحلة الراهنة في ضوء الماضي، أو فهم تأثير أحداث الماضي في الواقع الراهن وتحدياته.

تحدي الحضارة الغربية

كان التحدي الأساس الذي واجه الأمة الإسلامية والحضارة الإسلامية منذ أنشأت دولتها، وبدأت نشر حضارتها وثقافتها، باعتبارها رسالة تحرر للبشر كافة عليها أن تواجه القوى التي تتصدى للدعوة، وتصد عنها، وتحول بين الإنسان الفرد وحريته في اختيار عقيدته ودينه. في البداية واجهت المشركين في جزيرة العرب، ثم استقر أمر التحدي في مواجهة مفتوحة مع الحضارة الغربية –التي وجدت في الحضارة الإسلامية تهديدًا لنموذجها وسلطانها– ممثلة بالدولة البيزنطية، مرورًا بالحملات الصليبية، وصولاً إلى التحدي الغربي الحديث، ممثلاً ببريطانيا العظمى ووريثتها أمريكا، وانتهاءً بسقوط النظام السياسي الإسلامي لأول مرة بعد أكثر من ألف وأربعمئة عام، وتقسيم أقاليم الدولة العثمانية وفق اتفاق "سايكس بيكو"، واغتصاب فلسطين(١).

---

(١) نظرية صراع الحضارات هي نظرية غربية تؤمن بالصراع الحتمي للحضارة الغربية مع الثقافات والحضارات التي يمكن أن تنافسها، خاصة الحضارة الإسلامية. الحضارة الإسلامية في جوهرها لا تؤمن بالصراع الحتمي للحضارات، لأنها تعترف بالآخر ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات، ١٣). الإسلام يقبل المفاهيم والقيم التي تستقيم مع الفطرة، ويرفض تلك التي تتنافى مع جوهر التوحيد.

بقي تاريخ هذا الصراع بين مد وجزر، فتوحات وتراجع، ومع الوقت ونتيجة لهذا الصراع الطويل تمايزت الحضارتان الإسلامية والغربية، وشكلت كل منهما تحديًا للأخرى(١).

والحضارة الإسلامية كغيرها من الحضارات، انتقلت بعد مرحلة البناء منذ ﴿اقْرَأْ﴾ (العلق، ١) في غار حراء، إلى بناء مؤسسات الحكم والدولة، والتوسع والتفاعل مع الحضارات الأخرى، وبناء الشخصية الحضارية. ثم أصابها المرض الذي بدأ ينتشر رويدًا رويدًا، وانتقلت إلى مرحلة الجدل والتحزب والافتراق الداخلي، والخلافات المذهبية والقومية والفئوية، والمصالح الشخصية، وعدم الاكتراث بالصالح العام، ثم التّفتت والتناحر الداخلي، والانقسام والانحراف، واختلال أفسد العقيدة والثقافة.

وقد تداخلت المرحلتان، حيث في المرحلة الأولى تولى المركز في مكة بقيادة الرسول ﷺ والصحابة الكرام من بعده، توحيد العقيدة والثقافة، وبناء مؤسسات المجتمع والدولة بشكل متماسك، وفق هذه العقيدة المتجذرة في النفوس.

في المرحلة الثانية بدأ الانحراف بالتدريج، وبدأ الافتراق بين العقيدة التي حفظها العلماء العظام، وبين السياسة التي انتهجها

---

(١) تجربة النظم الاشتراكية ودولها تعتبر جزءًا من الحضارة الغربية، ولها نفس المفاهيم والملامح، واختلافها في عمومه حول المصالح المتعلقة بالهيمنة على العالم.

بعض الحكام، وبدأ دور المركز يتقلص لصالح الأقاليم، وبالتدريج فسدت العقيدة والثقافة بالانقسام وإثارة النعرات الطائفية والمذهبية، وبدأ الأفول الذي أصاب الحضارة الإسلامية كغيرها من الحضارات -وفق سنة الاستبدال- يأخذ مداه.

جميع فترات التاريخ شهدت تقدم بعض الأمم وسقوط أمم أخرى، في القرن العشرين وحده غابت عن المشهد الدولي خمس إمبراطوريات.

وقد تتقدم أمة في حقل من النشاط الإنساني، لكنها تتردى في أنشطة أخرى، وهكذا يبدأ الانهيار عندما تفشل الحضارة في الاستجابة للتحديات المتلاحقة.

أمريكا وأوروبا تتقدم اليوم في التكنولوجيا، وتتراجع في الأدب والأخلاق والفنون، الحضارة الغربية تفشل فشلاً ذريعًا في تلبية حاجات الإنسان وتحقيق غاياته الثابتة(١).

فإذا كان تقدم أية حضارة يقاس بمقدار السعادة التي توفرها للبشر، فإن النتيجة في الغرب واضحة، زيادة حالات الانتحار

---

(١) الفلسفات الغربية ليست كلها متجانسة؛ فالحضارة الإسلامية تقر الأفكار والنظريات والقيم الغربية التي تنادي مثلاً بحقوق الإنسان والكرامة الإنسانية والحرية والمساواة التي لا تتنافى مع الفهم الصحيح للإسلام، كذلك تلك التي تنادي بقيم العدالة الاجتماعية ومحاربة الفقر وأية قيمة سامية أخرى، مسترشدة بالآية الكريمة: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (المائدة، ٢).

والإدمان والانحراف والهروب من الحياة.

وإذا كان يقاس بتماسك المجتمع وانتشار الأخلاق، فإن أخلاق أوروبا وعاداتها وتقاليدها ساءت، والحضارة الغربية اليوم تقترب من فوضى أخلاقية واجتماعية كبيرة، مظاهرها انحلال الأسرة، وانتشار الشذوذ والمثلية إلى درجة أن تسمح الكنيسة الكاثوليكية بعقد الزواج المثلي داخلها.

وإذا كان التقدم يقاس بإحلال النظام محلّ الفوضى، فهل الحضارة الغربية نجحت في إحلال النظام في العالم، وهي تخرج من حرب مدمرة إلى حرب أخرى أكثر تدميرًا؟!

الغرب يعاني من أزمة حضارية حادة، ولذلك فالتحدي مع نموذج الحضارة الإسلامية –رغم غياب نظامها السياسي– قائم في وعي الغرب، والصراع مستمر بوتيرة مختلفة وأشكال متباينة، والخشية من إعادة استئناف الحضارة الإسلامية لدورها العالمي يعشش في ذاكرة الغرب.

ويمكن تلخيص أهم نقاط التمايز بين الحضارتين، بالنقاط التالية:

١- الانفتاح والمساواة

الحضارة الإسلامية، ولأن رسالتها إيصال الدعوة إلى الآخرين، يُعتبر الانفتاح على الأمم والحضارات الأخرى من أهم

ملامحها. فكثير من الفتوحات تمت عبر التجارة والإقناع، وفتحت كثير من البلدان عبر الدعوة والتفاعل والتجارة مع أهل البلاد المفتوحة، ولم تتم عبر الغزو والقهر. ولذلك تم الحفاظ على حقوق أهل البلاد المفتوحة وممتلكاتهم، وأصبحوا إخوة للفاتحين، لهم نفس الحقوق، وعليهم نفس الواجبات. وكثيرًا ما تحول أهل البلاد المفتوحة إلى أفضل ممثلين عن الحضارة الإسلامية ومفاهيمها.

الحضارة الإسلامية لم تضع نظام اقتصاديًّا قائمًا على نهب ثروات البلاد المفتوحة، واستغلال خيراتها، ولم يكن المركز –مكة ثم الشام وبغداد وإسطنبول– أفضل حالاً من الأطراف. وفي كثير من الأحيان كانت حال البلاد المفتوحة أفضل من حال المركز. لقد غابت أية أسس لتقسيم الناس إلى طبقات في الحضارة الإسلامية.

الحضارة الغربية ودولها المختلفة نشأت أساسًا من خلال حروب أهلية، أو غزو خارجي يهدف إلى السيطرة على الأرض والموارد، فكانت قوانين المنتصر هي التي تخلق نظامًا اجتماعيًّا جديدًا، أساسه نهب الثروة، وتكديسها في يد الغازي. ولذلك وجدت الطبقات الاجتماعية في الحضارة الغربية ودولها المختلفة. ومنذ البداية تم تقسيم المجتمع إلى ثلاث طبقات: النبلاء، والفرسان، وبقية المجتمع. ثم ظهرت طبقة الإقطاع المتحالف مع رجال الدين.

٢- الحكمة

لأن هدف الرسالة الإسلامية هداية البشر، فإن إلحاح الحضارة الإسلامية على الإيمان والأخلاق والأدب والفن أكثر من إلحاحها على القوة. فيما الحضارة الغربية تلح على القوة، وتضخيم الوسائل دون تحسين الأهداف، وعندما تصبح الأهداف غير نبيلة -والتي كانت كذلك على مدار الوقت- فوسائل القوة والتقنية التي تطورها الحضارة تصبح أدوات للجرائم والعنف والقهر والقتل واستعباد الناس، وتاريخ الحضارة الغربية مليء بهذه الجرائم.

٣- التفاضل

في حضارة الغرب يتفاضل البشر بحسب انتمائهم للأسر المالكة، وفي حالة الغزو يصنفون بحسب قدرتهم على التدمير، وحديثًا بحسب تكديسهم للثروة. لذلك تنمو وتتعدد كل أشكال التعصب الديني والعرقي والمذهبي والجنسي والوطني.

في الإسلام، القاعدة الأساسية لتفاضل البشر "كلكم لآدم، وآدم من تراب". فالبشر كأسنان المشط، "لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأعجمي على عربي، ولا لأبيض على أسود، ولا لأسود على أبيض، إلا بالتقوى". وتختفي بذلك كل أشكال العنصرية للجنس أو القوم أو العرق أو الدين، وتبقى القاعدة

الأساسية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات، ١٣).

٤- العلم

الرسالة التي بدأت في غار حراء بـ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ (العلق، ١-٤)، تسخر العلم من أجل توسيع فهم الإنسان للحياة، والكون، والاستخلاف فيه، والاستمتاع به. وكلما تقدم العلم في الحضارة الإسلامية تعمق الإيمان، وظهرت معجزات الكتاب الخالد، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر، ٢٨)، فلا توجد حقيقة علمية إلا ولها ما يسندها ويشير إليها في القرآن الكريم.

ولا توجد حضارة اعتمدت العلم والدقة في نقله، كالحضارة الإسلامية التي وضعت تراجم لحياة نصف مليون من البشر، بكل تفاصيل حياتهم. ونرى في الحضارة الإسلامية أن العلماء في الطب والفلك والهندسة، إلخ... هم الزهاد والأدباء والفقهاء، لهم مصنفات في الأدب والفقه والتفسير على السواء، ولا يوجد هذا الخصام النكد بين العلم والدين القائم في حضارة الغرب.

في الغرب، كلما انتشر التعليم تراجعت الأفكار الدينية، وزاد عدد الملحدين، وأصبح الدين طقوسًا ومظاهر لا تؤثر في سلوك

البشر. وعندما ينتصر العلم والعقلانية على أساطير دين الكنيسة التي تحرق العلماء وكتبهم في الغرب ينشأ جيل علماني متحرر من القانون والأخلاق الذي يفرضه الدين، مستسلم للفساد والترف والفوضى في الأسرة والأخلاق. ويصبح التدين عبارة عن طقوس فارغة في الكنيسة صباح الأحد. ولم يعد شباب الغرب يكترث بغير المتع الحسية، ولم يعد يشعر بأن من الشرف أن يضحي الإنسان بنفسه من أجل وطنه أو دينه. بخلاف الحضارة الإسلامية، فكلما انتشر التعليم تألقت الأفكار الدينية والقيم، وانسجمت مع العلم، وأعادت التماسك للأسرة والمجتمع. وينشأ جيل تسيّجه الأخلاق، مستعد للدفاع والتضحية من أجل وطنه، ودينه، ونبيّه إذا مُسّ بكلمة أو صورة كاريكاتير. وعاد علماء الإسلام العظام –تلك العقول المبدعة– للتأثير أكثر مما كانوا في حياتهم. وهذا استمرار، ليس فقط لإبداعهم، بل أيضًا للحضارة التي شاركوا في بنائها. فالحضارة التي تعتمد على العقل –لا المعجزات– لا تموت.

٥- الصلاح

تاريخ الحضارة الإسلامية حافل بمظاهر الصلاح والنبل، حيث يتبارى الحكام والأغنياء والقادة في وقف الأملاك، وإنفاق الأموال، في أعمال الخير والإحسان. ومؤسسة الوقف ممتدة على

مدى الجغرافيا الإسلامية، وعلى مدار التاريخ الإسلامي، فيما يختفي الوقف في الحضارة المادية الغربية القائمة على المصلحة الفردية وتكديس الثروة.

ولأن الهدف أو الغاية هي التي تشكل طبيعة الحضارة، وترسم ملامحها العامة، فإذا كان هدف الحضارة السيطرة، فمن الطبيعي أن تعتمد الغزو والقهر، وأن تكون سمتها الأساسية القوة، وأن تمارس الاستحواذ وتكديس الثروة، والاستعمار بأبشع أشكاله، وأن يتمظهر فيها التعصب والعنصرية بكل أشكالها.

أما إذا كان الهدف بث رسالة الحضارة إلى العالمين، فمن الطبيعي أن تعتمد الدعوة والتبليغ والتفاعل بين الأمم، وأن تكون سمتها الأساسية الأدب والفن والجمال، وأن تشرع أبواب الخير والرحمة والمساعدة والتكافل والتسامح وتوزيع الثروة، وأن تختفي كل أنواع التعصب والعنصرية، ويكون شعارها الأساس: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات، ١٣).

والحضارة الإسلامية، بما هي رسالة السماء الخالدة لأهل الأرض، وهي أعظم حضارة عرفها البشر، هندست علاقة الإنسان بنفسه وبأخيه الإنسان، وبالكون من حوله في انسجام كامل، وصنعت نسيجًا متشابكًا من العلاقات القانونية والأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية، وفتحت أبواب الإبداع الثقافي، وسهلت

إنتاج الأدب والأفكار والفنون والعلوم. وأبدعت تراثًا محفوظًا لا نظير له، يعيد بناء الحضارة الإسلامية عند تلقيه ونشره واستعماله، فكلما علا شأن التراث يعلو شأن الإنسان الذي يتلقاه، ويتفاعل معه.

ونحن إذ نسلم بأنه لا يوجد تغيير أساسي في طبيعة الإنسان على مرّ العصور، وأن جميع مظاهر التقدم التكنلوجي اليوم هي مجرد وسائل لتحقيق غايات قديمة للإنسان، في مقدمتها الانسجام مع نفسه ومجتمعه وبقية الكائنات من حوله، والتسليم للخالق بالربوبية والعبادة، والاستخلاف في الأرض. وأمام فشل الحضارة الغربية في تلبية هذه الاحتياجات، فإن العالم اليوم متعطش لبديل حضاري يلبي حاجات البشر الأساسية.

ولأن الحضارة صيرورة لا تفنى، وإنما يذهب إطارها العام، ولكنها لا تورث أيضًا، وإنما يتم تعلمها واكتسابها، وإعادة بنائها في دورة حضارية متجددة. وهذا لا يمكن إنجازه من دون إدراك تحديات اللحظة الراهنة، والاستجابة الصائبة لهذه التحديات.

التحديات الراهنة

يمكن القول إن هناك ظروفًا دولية تسود عالم اليوم تشبه إلى حد كبير الصـــراع الدائر إبان الحرب العالمية الثانية، ونتوقع في المستقبل، كما حدث في الماضي، صعود بعض الدول وهبوط دول أخرى، وأن تبدأ حضـــارات جديدة بالتشـــكل تعتمد على تراثها وشخصيتها الحضارية، وتنتج أدواتها واحتياجاتها، غذائها ودوائها وسلاحها، ولا تعتمد على الآخرين، بل تفيض عليهم بمساعدتها.

الظروف الجديدة تستوجب تعديلات في الاستجابة للتحديات الناشئة، وأن يبادر بذلك القادة المبدعون القادرون على الاستجابة الفعالة للمواقف المتجددة، وأن تنشأ البنية التحتية الصحيحة التي تصنع الفرد المبدع، والتي تعتمد بشكل أساسي على التعليم، التعليم لا كعملية تكديس للعلوم والتواريخ، ولا مجرد إعداد الفرد لكســـب قوته في ســوق العمل، وإنما أســاسًــا عملية انتقال لتراثنا العقدي والأخلاقي والجمالي إلى أوســـع شـــريحة من المجتمع، من أجل توسيع فهم الإنسان للحياة ولدوره فيها.

والإســلام وضــع قواعد وأســسًــا عامة للحضــارة والمجتمع المسلم، وترك مساحة واسعة للاجتهاد والاستجابة التفصيلية، وفق الظروف والتحديات المســـتجدة. وهكذا، فإن الأفراد الذين يتمتعون

بهذه الحرية –حرية الاجتهاد– أكثر تأثيرًا في بناء نهضة الأمة من نظرائهم المقلدين –المقيدين–.

ولذلك اعتبر الإسلام أن الثورة الحقيقية هي تثوير العقل وصقل الشخصية (الجهاد الأكبر)، والتحرر الحقيقي هو تحرير الفرد من القوى المختلفة المتسلطة (عبودية العباد)، وهذا هو جوهر رسالة الإسلام. والثوريون والمُصلِحون الحقيقيون هم الأنبياء والرسل والعلماء، والسائرون على نهجهم الذين ينهضون بعبء هذه المسؤولية.

إذا أردنا أن ننهض، فلا مناص من مواجهة التحديات بطريقة مختلفة. إن تكرار الأخطاء، وكأننا في حقل تجارب، هو أخطر ما يواجه أمتنا، ولم يعد عقلانيًّا الاستمرار في طريق تقليد الغرب.

إذا كان هناك من برر الانبهار والإعجاب والانسحاق العربي بمظاهر الحضارة الغربية في القرن التاسع عشر، فلا يمكن لأي عاقل اليوم، بعد أن تكشفت هذه المظاهر والقشور عن مادية عنيفة، أن يبرر استمرار تقليد الغرب.

فمع بداية الثورة الصناعية في أوروبا، تكرست أهم ملامح الحضارة الغربية في نسختها الحديثة. ويمكن اعتبار تآكل اللاهوت المسيحي المنافي للعلوم الحديثة، وإحلال المؤسسات العلمانية محل المؤسسات الدينية، هو أخطر نتائج الثورة الصناعية.

فمنذ القرن السادس عشر، ضعف الإيمان الديني بالتدريج، حتى أعلن فرنسيس بيكون أن "العلم" هو دين الإنسان الحديث. وبدأ انتشار الإلحاد، وفكرة "موت الإله" كمعبود خارجي، وتسيدت الآلة على البشر بشكل يوحي بعالم كله آلات.

انعكس ذلك على النحو الآتي:

داخليًّا:

جلبت الثورة الصناعية إلى أوروبا علمنة المجتمع، وانهيار الدين، وتفشي الإلحاد، وانحلال الأخلاق، وتحرر الأدب، كما جلبت الديمقراطية والرأسمالية والفردية والمساواة بين الجنسين وتحديد النسل والعنف والجريمة. وكلما انتشر التعليم العلماني انتشر الإلحاد، وزادت النزعة الفردية والإباحية الجنسية وتفكك الأسرة. فمن يمنع الملحد من ارتكاب كل الجرائم والآثام، طالما هو يتخفى، أو يتحايل على القوانين، حيث يفقد القانون قوته إذا كان مصدره بشريًّا.

علمنة المجتمع غيرت الأخلاق، وغيرت معتقدات الكنيسة وممارستها، حتى يضطر بابا الكنيسة الكاثوليكية إلى الاعتراف بحق المثليين في تكوين أسرة! ويصبح من المقبول والطبيعي مباركة زواج المثليين داخل الكنائس الكاثوليكية!

خارجيًّا:

مارست الحضارة الغربية في حروبها كل أشكال الهمجية والعنصرية المتوارية تحت دعاوى الديمقراطية والحرية، وظهرت بشكل فج جرائمهم وأطماعهم وعنفهم في حروب الاستعمار الحديث، لنهب ثروات البلاد المستعمَرة، واستعباد شعوبها.

ويمكن القول إن الحرب هي أحد أهم ثوابت تاريخ الحضارة الغربية منذ الاقتتال بين النظم الأرستقراطية حتى أحدث النظم الديمقراطية التي مارست أعنف الفظائع في تاريخ البشر. أما السلام فكان توازنًا مؤقتًا وغير مستقر يستمر لفترات قصيرة، إما بقبول الخصم، أو بتوازن القوى، وما أن تتاح فرصة لخرق هذا التوازن إلا وتشتعل الحروب مجددًا.

وحكام العرب والمسلمين فقدوا التوازن منذ أكثر من قرن، وقبلوا بتفوق الغرب والاستسلام له، ومع ذلك لم تتوقف حرب الغرب المفتوحة ضدهم، بأشكال مختلفة، وأكثر فاعلية من الاستعمار المباشر. فكان الغزو الثقافي بالاستشراق والتغريب، والتجسس والانقلابات الأمنية لتثبيت عملائهم في الحكم، والحصار الاقتصادي ونهب الثروات وارتهان البلاد والعباد، وإقامة "إسرائيل" كذراع هيمنة وتدخل وقاعدة متقدمة، والتدخل العسكري المباشر إذا لزم الأمر لإجهاض أية محاولة للنهوض والاستقلال والثورة على

الأوضاع، خصوصًا وأن التقدم في وسائل الاتصالات والتجسس والنقل ووسائل الإعلام والتلقين وتطور الأسلحة في القرن الواحد والعشرين جعل الحرب صراعًا بين الشعوب تشمل المدنيين والمقاتلين سواء بسواء، وأحيانًا يتم فيها تدمير شامل للمدن، كما حدث في الحرب العالمية الأولى والثانية، وكما حدث في الجزائر وفلسطين والبوسنة والعراق وأفغانستان، وما يحدث في أوكرانيا اليوم. فضلاً عن القمع الوحشي الذي يمارسه الغرب عبر أدواته في المنطقة العربية، في التصدي لمحاولة نهضة الشعوب العربية منذ العام ٢٠١١. لأن الربيع العربي في أحد وجوهه مثّل ثورة على سياسات أمريكا وأدواتها في المنطقة العربية، وعلى العولمة (الأمركة) بالمفهوم الغربي، وفتح بابًا للعودة إلى تراث الأمة وثقافتها وتحررها. لذلك كانت ردة فعل الغرب وأدواته شرسة وماكرة ومستمرة، لكنها مع ذلك لم تحسم الصراع، ويمكن اعتبار ما شهدناه جولة من جولات التدافع الحضاري في المنطقة العربية.

والحضارات كما تتحلل على مهل، فهي تنهض على مهل أيضًا. وما نشهده الآن هو محاولات تعطيل النهوض الحقيقي بوسائل مختلفة، ليس أخطرها العنف الذي تمارسه القوى المضادة للنهضة. إن صناعة الفساد والتفاهة، ونشر الشك والإلحاد والفوضى الأخلاقية، والتحلل من القيم الدينية والأخلاقية تحت

دعاوى الحرية والتقدم وتجديد الخطاب الديني... إلخ، هي أعمق أدوات الشر.

يطرب بعض السفهاء للتحرر من الدين، لكن هل يمكننا أن ننشئ قانونًا أخلاقيًّا يحفظ قيم المجتمع، ويصون الغرائز، بعيدًا عن الدين؟!

إن الأنظمة التي تتخوف من أية مطالب شعبية، وتعمل على إغراق المجتمع بالانحراف والتفاهات، حتى تطمس أية فضيلة أو طموح، لا تدرك خطورة هذا المسلك، أنظمة تستخدم طابورًا من وسائل الإعلام والصحفيين والكتبة والفنانين الطبالين ووعاظ السلاطين لطمس أية فضيلة وتبرير أية مصيبة وبلية، هي أنظمة بلا عقل، ويكفي أن تشاهد الإعلام الرسمي لهذه الأنظمة لمدة خمس دقائق لتدرك حجم التفاهة، وحجم المؤامرة أيضًا على المجتمع.

فكلما سمحت سلطة الحكومة والقانون، في أية دولة، بانهيار المؤسسات الدينية والأسرة والأخلاق، تقدمت نزعة الشك والإلحاد، وما يصاحبها من جرائم ومخاطر، على تماسك المجتمع.

وإذا أرادت أية دولة أن تحكم دون اعتبار للقيم الدينية –التي تلبي احتياجات الروح– كما تفعل بعض الأنظمة العربية، فأمامنا تجربة الثورة الفرنسية لنتعلم عواقب مثل هذا الجرم.

ولا يوجد مثال في التاريخ لمجتمع ناجح في حماية الحياة الأخلاقية دون معونة الدين، حيث تنشأ كل أشكال الظلم والعنف في غياب الدين. وحتى أمريكا وفرنسا التي فصلت حكوماتها عن المؤسسات الدينية لجأت إلى الدين للحفاظ على النظام الاجتماعي. وروسيا والدول الاشتراكية –بعد فشل النظام الاشتراكي– تتغاضى، وأحيانًا تشجع العودة إلى المعتقدات الدينية.

الصراع على فلسطين

عندما نتحدث عن الصـراع على فلسـطين، فنحن لا نتحدث عن معركة وطنية لشـعب محتل، بل عن صـراع يعكس أهم ملامح المواجهة الحضارية مع الغرب.

تمثل "إســـرائيل" في هذا الصـــراع ذراع الغرب، وقاعدته المتقدمة، للهيمنة على المشـرق الإسـلامي. وفلسـطين تمثل الأمة في بعدها الحضـاري العقدي. صـراع له أبعاد حضـارية في العقيدة والثقافة والتاريخ، كما في الجغرافيا والســياســة والاقتصــاد، وله تداعيات مباشـرة على أوضـاع الأمة وعلاقاتها في المنطقة العربية وخارجها.

نظرة فـاحصـــة لعلاقـات "إســـرائيـل" مع الأقليـات، ومع الدكتاتوريات في المنطقة العربية، ودور "إســـرائيل" ولوبياتها في الغرب، في التحريض والضـــغط والمســـاعدة في قمع محاولات النهوض العربي والإســلامي، ندرك من خلالها أن الصــراع الدائر في فلسـطين والمنطقة هو صـراع مترابط، الشـعب الفلسـطيني في الخنـدق الأول، ولكن في بعض الحـالات تكون الخنـادق الخلفيـة أكبر تأثيرًا وأكثر خطورة ودموية. وهناك علاقة جدلية بين سـاحات هذا الصـراع، فإن صـمود الشـعب الفلسـطيني، وأي إنجاز يحققه في

صـراعه المباشـر مع العدو الصـهيوني، بالضـرورة ينعكس إيجابًا على دول المنطقة وشـعوبها، ويعطي أملاً متجددًا في حتمية الفوز في هذا الصـراع. وأي نهضـة واستقلال حقيقي لأي قطر عربي أو إسلامي ينعكس إيجابًا على صراع الشعب الفلسطيني مع "إسرائيل" التي تستهدف إضعاف جميع دول المنطقة، بما فيها الدول المطبعة معهـا، حتى تبقى ضـــعيفـة ومرتهنـة دون أي تـأثير أو نفوذ أو استقلال.

ولأننا نريد لأمتنا أن تنهض، ولفلسطيننا أن تتحرر، فإننا نرى ضـرورة إدراك التغيرات الكثيفة التي تمرّ بها المنطقة والعالم، حيث هناك أوضاع جديدة تستلزم تعديلات في الاستجابة لها.

كما نرى ضـرورة فهم جذور النكبة في فلسـطين، لنتمكن من فهم التحديات الراهنة في ضوء نكبتنا الأولى عام ١٩٤٨.

أولاً: جذور النكبة

شكل موقع فلسطين –عقديًّا وتاريخيًّا وجغرافيًّا– في قلب الأمة العربية التي هي قلب العالم الإسلامي ساحة صراع مفتوح مع الغرب، وفي العصر الحديث تجسد هذا الصراع بإقامة دولة "إسرائيل" التي هي مشروع غربي استعماري بامتياز، منذ نابليون على الأقل، تقاطع مع أطماع الحركة الصهيونية –وليس اليهود– في مرحلة متأخرة نسبيًّا(١). وهو يهدف أساسًا لإخضاع الأمة العربية ونهب ثرواتها، ومنع نهضتها وحريتها، واستئناف دورها الحضاري، وإبقائها رهينة لأطماع الغرب، وبالتالي استمرار تحدي الإسلام كدين وحضارة وثقافة، ومنع نهضة الأمة الإسلامية مجددًا.

لقد كان ضياع فلسطين نتيجة مباشرة للمواجهة المستمرة بين الغرب الاستعماري المشبَّع بالروح الصليبية، والشرق الإسلامي ممثلاً بالخلافة العثمانية التي لم تكن بأي حال من الأحوال

---

(١) كذلك الصراع مع الصهاينة ليس صراعًا دينيًّا، حيث يعترف الإسلام باليهودية، وحماها وأبقى عليها داخل الحضارة الإسلامية، وإنما هو صراع ومقاومة ورد الاعتداء ضد المشروع الصهيوني الذي يسعى إلى الهيمنة، ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ...﴾ (الممتحنة ٨–٩). الأعداء يعتبرونه صراعًا حضاريًّا أو دينيًّا، لأنهم في الأصل يرفضون الآخر، لعنصريتهم واستكبارهم. بينما الإسلام يرفض ذلك، ويعتبر أن الصراع محدد بالشروط والتهديدات، ولذا فهو ليس حتميًّا ولا أزليًّا.

–ومهما قسونا عليها– استعمارًا، فلم تكن حال أهل إسطنبول الاقتصادية أفضل من حال أهل القاهرة أو دمشق أو بغداد.

الصراع على فلسطين الذي له كل هذه الأبعاد العقدية والثقافية والتاريخية، فضلاً عن أبعاده السياسية والاقتصادية والعسكرية، وما له من تداعيات على المنطقة والعالم، حيث تمثل فلسطين قلب العالم الإسلامي في بعدها الديني، وتمثل "إسرائيل" ذراع الغرب في بعدها السياسي والثقافي. فإنه بذلك يلخص صراع الأمة الإسلامية مع الغرب وحضارته، ويعتبر صورة مصغرة تعكس هذا الصراع وتلخصه، وإن اختلفت بعض التفاصيل والأولويات. وكذلك يمثل حالة اختبار لكل الأطراف المشاركة فيه، ويكشف كل الدعاوى الزائفة لعزل فلسطين عن بعدها العربي والإسلامي.

منذ انهيار النظام السياسي الإسلامي، ممثلاً بالخلافة العثمانية عام ١٩٢٤، أصر الساسة والمثقفون العرب الذين انسحقوا بمظاهر الحضارة الغربية، وقوتها على التنكر لدين الأمة وثقافتها وتاريخها، وأن يستلهموا خطوات الغرب المستعمر، حذو النعل بالنعل، في مجال الثقافة والأدب والفن، لا في مجال التقنية والتكنولوجيا، وسؤال النهضة الذي كان دومًا يجد الإجابة عليه بالعودة الى أصول الإسلام، أصبحت إجابته عندهم تقليد الغرب، فإذا أردنا أن ننهض ونتقدم، علينا أن نعزل الدين عن شؤون الدولة

والمجتمع كما فعل الغرب، وأن نحارب الدين ورموزه ودعاته، دون فهم لطبيعة الدين الإسلامي ودوره في بناء حضارة الشرق، ودون التفريق بين دور الدين في أوروبا وتطورها التاريخي، وبين الدين الإسلامي وتطور الشرق والحضارة فيه.

لم يدركوا ماضي الأمة، ولا فهموا حاضر الغرب وآليات تطوره. سرقوا من عمر الأمة سنوات، لا صنعوا نهضة، ولا أقاموا وحدةً، ولا حرروا بلادًا، ولم يصنعوا سوى الكوارث والنكبات والنكسات والخيبات في مسلسل هبوط لا ينتهي، وأقاموا جيوشًا وأجهزة أمن لم تفلح إلا في قمع شعوبها.

وعندما فشلت دول ما بعد الاستعمار، وفشل زعماؤها السياسيون والمثقفون في مواجهة تحديات التغيير، كان سقوطها مدويًّا في أول مواجهة لها مع عصابات الصهاينة.

شكلت نكبتنا عام ١٩٤٨ لحظة فارقة في تاريخ الصراع مع الغرب، فقد نشأت دولة "إسرائيل" على أنقاض فلسطين العربية، وكل التطورات اللاحقة من حروب ومفاوضات ومعاهدات هدنة أو اتفاقات سلام، منذ "كامب ديفيد"، مرورًا بـ"أوسلو" و"وادي عربة"، وصولاً إلى اتفاقات "أبراهام" حتى يومنا هذا، هي نتائج مباشرة لحرب ١٩٤٨.

إن محاولة فهم ما حدث عام ٤٨، وأسباب هذا الانهيار

الشـامل، يشـكل مدخلاً إجباريًا لفهم التحديات الراهنة في فلسـطين والمنطقة. إن محاولة فهم أسـباب هذا الانهيار تكمن في فهم الأحداث التي وقعت قبل هذا التاريخ، ونبش جذور النكبة، وتفحص الوضـع العربي والفلسـطيني في العقود التي سـبقتها، وعدم الاكتفاء بسـرد الجرائم الصـهيونية والرعاية البريطانية الغربية للمشـروع الصهيوني.

عربيًا:

انتهى الأمر بالعرب الذين أدّوا دورًا أساسيًا في بناء الحضارة الإسـلامية والحفاظ عليها، إلى التحالف مع بريطانيا العظمى التي تمثل رمز الاسـتعمار الغربي ضـد الخلافة العثمانية، فيما سـمي "الثورة العربية الكبرى" بقيادة الشـريف حسـين، واسـتكانوا إلى وعود "صـاحبة الجلالة" في دولة عربية واحدة. ومع صـدمتهم بوعد "بلفور" و"سايكس بيكو" الذي ينسف أي أمل بدولة عربية، استمرت "القومية العربية" في كونها مشـروعًا ضـد مشـروع "الجامعة الإسـلامية"، بدل أن تتحول إلى ثورة شـاملة في وجه الاسـتعمار الإنجليزي والفرنسـي الذي نكث كل وعوده، وقسـم المنطقة العربية إلى دويلات، وفق مصالحه الخالصة.

حصلت الدول العربية على ما سمي بالاستقلال بعد الحرب

العالمية الثانية، ضمن الحدود التي فصلها المستعمر بالطريقة التي أرادها، ومع كل التناقضات ومشاكل الحدود التي تعمدها.

– مصر كانت تخضع لعلاقة استعمارية شبه عسكرية، وفق معاهدة ١٩٣٦ مع بريطانيا.

– شرق الأردن كان يخضع لتحكم بريطانيا عسكريًّا وماليًّا، وفق معاهدة ١٩٤٦ التي لم تكن استقلالاً بأي حال.

– لبنان وسوريا تحت تأثير فرنسا، رغم استقلالهما الشكلي عام ١٩٤٣ وعام ١٩٤٦.

النخب السياسية التي تشكلت أصبح لديها مصالح قطرية تدافع عنها، والعروبة أصبحت شعارات بلاغية رنانة تظهر في منابر المزايدات، بدل أن تكون دعوة جدية تتحدى شروط المستعمر. وقدم السياسيون العرب مصالحهم ومصالح أقطارهم على أية مصلحة قومية.

ولم يكن هناك ثقة بأي حديث رسمي عن العروبة، بمعناها القومي. فلم تؤخذ دعوة أمير شرق الأردن عبد الله بإقامة اتحاد سوريا الكبرى، إلا كمحاولة لتوسيع إقليم شرق الأردن. وجامعة الدول العربية التي أسست بتاريخ ١٩٤٥/٣/٢١، لم تبذل أي جهد لتجاوز القطرية. وهناك وثائق بشأن عروض سلام قدمها كل من ملك الأردن عبد الله والزعيم السوري حسني الزعيم لإسرائيل. كما

نشرت دراسات حول العلاقة الخاصة بين الصهاينة والمارونيين، وحول معاهدة بينهما تم إجهاضها عام ١٩٤٦.

ويمكن الاستنتاج أن الدول العربية التي دخلت جيوشها حرب ١٩٤٨، كان لها حسابات قطرية مختلفة ومتناقضة، ولم تشارك في الحرب، أو تفاوض بعدها بشأن الهدنات مع "إسرائيل"، إلا بمفهوم قطري، بعيدًا عن أية إستراتيجية عربية، أو حتى تنسيق عربي شامل.

فلسطينيًّا:

تم إعلان وعد "بلفور" في نوفمبر من العام ١٩١٩، لكن موجات الهجرة الصهيونية، ونشاط "الوكالة اليهودية"، وقبلها جمعية "أحباء صهيون"، لجلب اليهود إلى فلسطين، ليكونوا أداتها في إقامة الوطن القومي، لم تتوقف منذ سنوات، وإقامة "اليشوف" والمستعمرات الصهيونية والنزاع على امتلاك الأرض قد بدأ قبل ذلك بسنوات طويلة. أول مستوطنة "بتاحتكفا" أقيمت عام ١٨٨٠، وتحالف الانتداب البريطاني مع الحركة الصهيونية، وتسهيل هجرة اليهود أصبح ظاهرًا للعيان، ورغم تلك المخاطر استمر الانقسام بين النخبة الفلسطينية، والتنافس العائلي الذي –غذته بريطانيا– إضافة إلى افتقار الجسم السياسي الجامع والمتماسك طوال سنوات الانتداب،

ما ترك آثارًا سلبيةً عميقةً على النضال الفلسطيني –وإضاءة الشيخ عز الدين القسام وثورته لم تكن كافية لتجاوز هذا الانقسام–.

يضاف إلى ذلك أن الاتجاهات والسياسات السائدة خلال عقود الانتداب كانت انعكاسًا لما هو سائد في المنطقة العربية، وعلقت النخبة الفلسطينية آمالاً كبيرة على الدول العربية، دون إدراك طبيعة أوضاعها وسياسات حكامها، وتواطؤ بعضهم مع بريطانيا، إضافة إلى وثوق بعض هذه النخب بوعود بريطانيا، وعدم فهم طبيعة الغرب وعلاقته بالحركة الصهيونية.

ورغم الانتفاضات الشعبية المتوالية والاستعداد الشعبي الكبير للتضحية، فعلى مدار ثورة ١٩٣٦، وبحسب الإحصاءات التي ذكرها وليد الخالدي، فإن حوالى ١٠% من الذكور البالغين استشهدوا أو جرحوا أو اعتقلوا في المواجهات مع الجيش البريطاني والعصابات الصهيونية (أكثر من خمسة آلاف شهيد، وأكثر من عشرة آلاف مصاب، وأكثر من عشرة آلاف معتقل).

ورغم وجود عدد من القادة الأكفاء وكادر من المقاتلين المدربين على حرب العصابات، إلا أن الفلسطينيين افتقدوا مصدر إمدادهم بالسلاح، وأوضح مثل على ذلك رسالة القائد عبد القادر الحسيني لأمين عام جامعة الدول العربية بعد أن طلب تزويد مقاتليه بالسلاح: "إني أحملكم المسؤولية بعد أن تركتم جنودي في أوج

انتصاراتهم بدون عون أو سلاح"[1]، وهو يشير إلى معركة القسطل قرب القدس. كما افتقدوا القوات النظامية المدربة والقيادة السياسية الموحدة، حيث كان المفتي الحاج أمين الحسيني في منفاه الاختياري خارج فلسطين، وهو أيضًا لم يكن محل إجماع النخبة السياسية.

هذه هي الحال التي سادت عقود ما قبل النكبة، وتحديدًا زمن ما بين الحربين العالمية الأولى والثانية. وعندما جاء وقت الحرب كان من الطبيعي –والحال هذه– أن يسقط القادة العرب الذين رفعوا شعارات فارغة حول تحرير فلسطين في أول مواجهة مع المشروع الصهيوني، حيث يقف على جانب قوات صهيونية منظمة ومدربة تدريبًا جيدًا تناهز ٦٧ ألفًا موزعين على ألوية وكتائب، تملك إمكانات وقدرات عسكرية متفوقة راكمتها عبر سنوات من العلاقات مع سلطة الانتداب، كما تسلمت الوكالة اليهودية المستودعات والمعسكرات والمطارات التي كانت للجيش البريطاني عندما بدأ الانسحاب أولاً من المناطق اليهودية، ولها قيادة متماسكة تملك خطة عسكرية واضحة (الخطة دال)، ولها أهداف محددة (الاستيلاء على أكبر مساحة من الأرض)، وقيادتها السياسية تملك رؤية واضحة للصراع، وتدرك موازين القوى في

(١) نص الرسالة التي أرسلها عبد القادر الحسيني، بعد أن لم تجبه جامعة الدول العربية على طلبه الإمداد بالسلاح.

العالم وتربطها تحالفات ومصـالح مشـتركة مع دول الغرب المؤثرة، ووعد من دولة الانتداب بإقامة وطن قومي لليهود، ولديها هدف تعمل على تحقيقه منذ سـنوات باسـتجلاب أفواج المهاجرين اليهود إلى فلسطين. وباختصار هي جزء من الغرب، تملك ثقافته وأدواته، كما تملك رؤيته للصـــراع في المنطقة، وأهدافه في الســـيطرة، وتتحالف معه لتحقيق مصالحه التي هي مصالحها.

ورغم أن قادة الحركة الصـهيونية علمانيون في معظمهم، إلا أنهم نجحوا في مواءمة وتصـالح بين مصـالح الحركة الصـهيونية كحركة قومية، وبين ثقافة اليهود وتاريخهم.

على الجانب الآخر، فإن الدول العربية في معظمها ما زالت تحت الاســتعمار المباشــر، أو منخرطة في علاقات ســياســية وعسكرية واقتصادية تابعة له.

قائد ما يســـمى بالثورة العربية الكبرى يتحالف مع بريطانيا ويحارب الدولة العثمانية، والزعماء السـياسـيون تحركهم مصـالحهم الخاصـة والقطرية، والتي تتقاطع مع مصـالح المسـتعمر وهيمنته، لدرجة أن الجيش الأردني تحت قيادة جنرال بريطاني "جلوب باشا"، والنخب السياسية والثقافية في معظمها مشوهة ومنسلخة عن تاريخها وثقافتها وعقيدة شعوبها، ومتنكرة لها، ومهزومة روحيًّا وعقليًّا وعلميًّا أمام حضارة الغرب المستعمر وثقافته، وتعتبر الحملة الفرنسية على

مصر ١٧٩٨ هي بداية عصر النهضة والتنوير في الشرق.

باختصار، دخلوا الحرب على نفس أرضية المستعمر الذين يريدون هزيمة مشروعه في فلسطين. دخلوا الحرب دون رؤية صائبة، ودون هدف مشترك، ودون خطة عملية موحدة، وبأعداد رمزية، حيث أن مجموع القوات العربية (التي يطلق عليها مجازًا جيوشًا عربية) أقل من خمسة عشر ألفًا، أوكلت قيادتها إلى ملك الأردن عبد الله تساعده هيئة أركان. وقد غير الملك، تحت تأثير جلوب باشا، مهام هذه القوات قبل يومين من دخولها فلسطين، ما أوجد إرباكًا إضافيًّا، وضعفًا في التنسيق بين أجزاء هذه القوات(١)، وأصبح كل جيش يعمل بأوامر دولته التي تحكمها حساباتها القطرية.

في فلسطين، كان عديد جيش الجهاد المقدس من ثمانية إلى عشرة آلاف، يساعده جيش الإنقاذ وتعداده من ثلاثة إلى أربعة آلاف، هبوا للدفاع عن وطنهم، لكنهم افتقدوا إلى مصدر موثوق للسلاح، كما افتقدوا القيادة السياسية الموحدة، فالحاج أمين الحسيني بعيدًا في بيروت، ثم في ألمانيا فترة الحرب الثانية، وبقية أعضاء اللجنة العربية العليا تضعفهم الخلافات، وتنقصهم القدرة على تحمل المسؤولية، وعلقوا آمالهم على الدول العربية، إضافة إلى أن الوضع العام مرهق نتيجة التكلفة الباهظة، والقمع البريطاني منذ ثورة ١٩٣٦.

---

(١) وليد الخالدي.

ثانيًا: تطور الأوضاع في المنطقة والعالم

الولايات المتحدة الأمريكية تقوم اليوم بالمهمة التي اضطلعت بها بريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر، وهي حماية الحضارة الغربية من أي خطر خارجي، وعولمتها وتعميمها، وحماية ذراعها "إسرائيل" في قلب العالم الإسلامي الذي يشكل التحدي الحضاري والنموذج المقابل لحضارة الغرب.

وإذا كان لا بد أن يكون للغرب عدو خارجي معلن، ورسالة مقدسة لإخضاع هذا العدو، فقد جددوا الإعلان وبشكل واضح – بعد انهيار الاتحاد السوفييتي– أن الإسلام هو عدو الغرب، وفلتات لسان الرئيس الأمريكي بوش الابن في غزوه للعراق كانت مؤشرًا على الروح الصليبية للحضارة الغربية.

اليوم يتم إعلان روسيا خصمًا، والصين منافسًا، لكن العداء يبقى للحضارة الإسلامية التي تشكل نموذجًا مناقضًا للغرب، ورؤية مخالفة لحضارته، فيما الحرب مع روسيا والصين تنحصر في إضعافهم واستيعابهم ضمن الرؤية الأمريكية والمصالح الغربية. ويمكن أن تنتهي معاركهم باتفاقات جديدة لاقتسام المصالح والنفوذ، كما حدث بعد الحرب العالمية الثانية، لأنها معارك مصالح ونفوذ تدور على نفس الأرضية، وليست صراعات حضارية.

ورغم أن هذه المعارك تشكل فرصة لإعادة الحسابات، واستخلاص النتائج، وبناء التحالفات، إلا أن الأمة الإسلامية يجب أن تعتمد أساسًا على قواها الذاتية، وتماسكها الداخلي، وتبقى مستعدة دومًا للدفاع عن نفسها، نظرًا للعجز في القانون الدولي الذي فُصّل للحفاظ على مصالح المنتصرين في الحرب العالمية الثانية.

بعض الصراعات ليس لها حلّ، ومنها الصراع على فلسطين، لأنه جزء من صراع حضاري، كما أوضحنا، ولكن إذا غاب الحسم الإستراتيجي، فلا تغيب الرؤية الإستراتيجية، ولا نتعلق ببعض الحسابات التي يروجها بعض المخلصين الذين يبشرون بزوال "إسرائيل" عام ٢٠٢٢ أو عام ٢٠٢٧، لأن قوانين الصراع والتدافع والاستبدال بين الأمم هي قوانين صارمة تجري وفق سنن، ولا تخضع للأمنيات والرغبات.

نحن فقدنا فلسطين في سياق صراع الغرب مع الحضارة الإسلامية، وإسقاط النظام السياسي الإسلامي، والدولة الإسلامية التي تدافع عن مصالح المسلمين في كل مكان، وإنشاء الدولة القطرية التي تعطي الأولوية لمصالحها القطرية، وارتباطها مع مصالح المستعمر. وفلسطين يتم استعادتها في نفس هذا السياق.

وهذا يرتب مسؤوليات جديدة، واستجابة جديدة للتحديات في

فلسطين وخارجها.

أ- في فلسطين:

أُنشئت منظمة التحرير الفلسطينية بقرار رسمي عربي، لتحل محل الهيئة العربية العليا الممثلة في جامعة الدول العربية بحكومة عموم فلسطين، وبدت المنظمة كجزء من النظام العربي الرسمي، ووضعت ميثاقها القومي على هذا الأساس.

بعد نكبة عام ١٩٦٧، دخلت الفصائل الفلسطينية إلى منظمة التحرير الفلسطينية، وقادت حركة فتح المنظمة منذ عام ١٩٦٨ حتى اليوم، وتم تغيير الميثاق القومي إلى الميثاق الوطني الفلسطيني.

بدأ التنازع على تمثيل الشعب الفلسطيني مبكرًا بين م.ت.ف والمملكة الأردنية الهاشمية، حتى انتزعته المنظمة في القمة العربية المنعقدة في الرباط عام ١٩٧٤.

كان واضحًا منذ البداية أن الصراع يفقد بعده العقدي، ثم فقد بعده القومي، وانحصر في بعده الوطني، كصراع على الجغرافيا بين م.ت.ف و"إسرائيل". وقد بدأت المنظمة في البحث عن شرعية التمثيل، لتتقدم بها إلى الغرب في مسار التفاوض والتسوية. وهذا يستلزم في مرحلة لاحقة تعديلات جوهرية على الميثاق الوطني،

وعلى مسيرة النضال الفلسطيني برمتها، لقد تم التعبير عن هذه التعديلات أول مرة في البرنامج المرحلي (المعروف ببرنامج النقاط العشر) الذي تم الموافقة عليه في دورة المجلس الوطني الثانية عشرة عام ١٩٧٤.

لم يتوقع أحد ممن أقر البرنامج المرحلي أن هذا السياق سينتهي به المطاف الى اتفاق "أوسلو" الذي سيفتح الباب أمام "إسرائيل"، للالتفاف على انتفاضة الشعب الفلسطيني الأولى عام ١٩٨٧ وإجهاضها. وكذلك يفتح باب التطبيع العربي الرسمي الذي سيقفز عن القضية الفلسطينية، تحت شعار "نقبل بما يقبل به الفلسطينيون"، في مرحلة التفاوض مع العدو، ثم التنكر لفلسطين وحتى للمفاوض الفلسطيني عندما تتعثر المفاوضات، والقفز إلى اتفاقيات "أبراهام"، والتحالف مع العدو بحجة المصالح الوطنية لكل قطر.

إن احترام القرار الفلسطيني المستقل إذا كان استسلامًا، ومقاومته واعتباره إرهابًا إذا كان اشتباكًا ومقاومة، مهد الطريق إلى مسلسل الانهيار العربي، بدءًا باتفاق "وادي عربة" بين "إسرائيل" والأردن، وليس انتهاءً باتفاقات "أبراهام" مع الإمارات والبحرين والمغرب والسودان. وهذا بدوره، ترك السلطة الفلسطينية الضعيفة دون سند عربي، ولو بالحد الأدنى الذي تمثل بإعلان "المبادرة

العربية" في قمة بيروت ٢٠٠٢.

أصبحت السلطة الفلسطينية تستمد مكانتها السياسية، بكونها شريكًا لإسرائيل، في مفاوضات عبثية لا تنتهي.

وانتهت هذه المفاوضات عمليًّا في "كامب ديفيد ٢"، عندما أدرك الرئيس عرفات أن المطلوب اتفاق استسلام كامل، بما فيه التنازل عن السيادة في القدس الشرقية والحرم القدسي الشريف، وأن حلّ الدولتين وهم وسراب. حاول الرئيس عرفات تعديل قواعد لعبة التفاوض قليلاً، ولكنه دفع حياته ثمنًا لذلك.

تحولت المفاوضات منذ ذلك الوقت إلى مجرد لقاءات شكلية، أو متابعات أمنية، أو مطالبات مالية. وأعلنت "إسرائيل" موت حل الدولتين، واستبداله بمشروع "السلام الاقتصادي" (تحسين معيشة). وأخيرًا أعلن الرئيس بايدن في مؤتمر صحفي مع رئيس وزراء العدو "لبيد" يوم ٢٠٢٢/٠٧/١٤ أن هناك وقائع جديدة على الأرض يجب أن تؤخذ بالحسبان، ويعني بذلك المستوطنات في الضفة والقدس.

لقد تحولت الضفة الغربية تحت سقف "أوسلو" إلى دولة للمستوطنين الذين أصبح عددهم يقارب مليون يهودي(١)، يتوزعون في حوالى أربعمئة مستوطنة وبؤرة استيطانية، تسيطر "إسرائيل"

(١) حسب إحصاءات معهد الأبحاث التطبيقية الفلسطينية.

على مساحة حوالى ٦٠٪ من أراضي الضفة الغربية، والجدار العنصري يتلوى بين المناطق العربية ليصادر أكبر مساحة من الأرض مع أقل عدد من السكان العرب، ليتركهم في معازل حقيقية ليس بينها أي رابط جغرافي.

أصبح واضحًا أن الصراع على فلسطين يستعصي على المفاوضات التي استمرت أكثر من ربع قرن، تصاعد خلالها العدوان والتدمير والتهويد والاستيطان الذي اتخذ من المفاوضات غطاءً ومبررًا للاتساع والتصاعد، كما واستمر العدوان (المعارك بين الحروب) التي شنها العدو على الشعب الفلسطيني، سواء في الضفة (السور الواقي)، أو في غزة (٢٠٠٨، ٢٠١٢، ٢٠١٤، ٢٠٢١، ٢٠٢٢).

السلطة التي نشأت وفق ترتيبات أمنية وسياسية واقتصادية، ككيان ملحق بـ"إسرائيل"، نبذت المقاومة باعتبارها إرهابًا، وحافظت على ما يسمى "التنسيق الأمني"، تحت شعار الوفاء بالتزاماتها، تعتمد على المساعدات المالية الأوروبية المشروطة، ويتم ابتزازها، ولا تملك أية خيارات أو بدائل، فرطت بكل أوراق القوة سلفًا، وأضحت رهينة للشراكة الأمنية مع العدو، وكل تهديداتها بالبدائل لغوًا لا يأخذه أحد على محمل الجد.

منظمة التحرير الفلسطينية تم إفراغها من أي محتوى أو

تأثير، وذابت مؤسساتها ضمن مؤسسات السلطة، وبدت كمؤسسة هامشية ملحقة بالسلطة، يتم استدعاؤها عند الحاجة.

السلطة فقدت مصداقيتها أمام قطاعات واسعة من الشعب الفلسطيني، بمن فيهم أنصار حركة فتح، وأصبحت بذلك أكثر ضعفًا، وأقل تمثيلاً، مكشوفة ومعرضة للابتزاز والتراجع المستمر (من تحرير كامل التراب الفلسطيني، إلى القبول بقرار ٢٤٢، إلى القبول بتعديلات على حدود ٧٦)... إلخ.

الانقسام الفلسطيني الداخلي هو انقسام ظهر إلى العيان منذ اتفاق "أوسلو"، لكن جذوره تمتد إلى البرنامج المرحلي الذي أصبح برنامج م.ت.ف السياسي منذ عام ١٩٧٤، والذي عكس عدم فهم طبيعة المشروع الصهيوني، ولا أهدافه أو أهداف الغرب الذي أنشأه ويمده بكل أسباب القوة. كما أظهر الأوهام والتكتيكات السياسية الصغيرة التي تعكس الإرادة التي أصابها التعب عند قيادة المنظمة التي استبدلت شعار تحرير كامل التراب الفلسطيني بشعار إقامة السلطة الوطنية على أي جزء يتم تحريره.

وقد تعمق هذا الانقسام بعد إصرار أمريكا والغرب على احتواء جميع القوى الفلسطينية، بما فيها المعارضة الإسلامية في سياق "أوسلو"، وذلك عبر ترتيب انتخابات برلمانية للسلطة الفلسطينية تشارك فيها حركة حماس عام ٢٠٠٦، فيما بقيت حركة

الجهاد الإسلامي منفردة خارج هذه اللعبة.

كانت نتيجة الانتخابات مخالفة لكل الحسابات والتوقعات الغربية، وجاءت بفوز حماس، ليأخذ الانقسام بعدًا جغرافيًّا وتمثيليًّا بعد سيطرة حماس على غزة.

يعتبر الانخلاع من "أوسلو" وتبعاته وقيوده مدخلاً إجباريًّا لاستعادة الوحدة الفلسطينية، ومباشرة حوار داخلي حقيقي، بهدف بناء إستراتيجية فلسطينية، ومرجعية وطنية تقود النضال الفلسطيني، وتواجه التحديات المستجدة، على أساس الحفاظ على الثوابت وحماية مشروع المقاومة وتعزيز صمود الشعب الفلسطيني الذي هو أساس كل إنجاز.

وما لم تعترف السلطة الفلسطينية بفشل مشروعها الذي بدأته منذ حوالى ثلاثين عامًا، فلن نتقدم خطوة مهمة في استعادة الوحدة الفلسطينية، وامتلاك رؤية إستراتيجية لطبيعة الصراع وأبعاده.

وفي كل الأحوال –ولأن الوقت لا ينتظر أحدًا– فمن واجب الفصائل والقوى الفلسطينية والشخصيات الوطنية، وفي مقدمتها حركة فتح، أن تجري حوارًا حقيقيًّا لتقييم المرحلة ومخاطرها وفرصها، بعيدًا عن التحزب، وبكل مسؤولية وطنية.

ومن ناحية أخرى، فإن فصائل المقاومة الفلسطينية، وأمام انكشاف وهم الاعتماد على النظام العربي، أو التشبث بالشرعية

الدولية، وبعيدًا عن البحث عن هذه الشـــرعيات الزائفة، أو إعادة اســـتنســـاخ تجربة م.ت.ف، فإن أمامها فرصـــة لتوحيد الشـــعب الفلسطيني في كافة أماكن تواجده على خيار المقاومة.

إن وحدة الشعب الفلسطيني، ووحدة المعركة، ووحدة الساحات، وقدرة القدس على تحشـيد شـعب فلسـطين وأحرار الأمة، وامتلاك المبادرة، هي المعادلة الجديدة التي أكدتها معركة "ســـيف القدس" في مايو / أيار ٢٠٢١. وهي فكرة رائدة للنضـــال الفلســطيني، في ظل سـعي "إسـرائيل" الحثيث لإغراق كل سـاحة فلسـطينية بهمومها الخاصـة. فكرة نبني على أسـاسـها البرامج والخطط بعيدًا عن ردَّات الفعل في الميدان، أو عن الاجتهادات الفصـــائلية المنفردة. وهذا يستدعي الارتقاء بالعلاقات بين فصـائل المقاومة نحو تشكيل قيادة وطنية واحدة للمقاومة، بعيدًا عن أية حسـابات أو مناكفات حزبية، لأن معركتنـا مفتوحـة وطويلـة، والجميع يعلم حجم التضـــحيات لتحرير الشريط الضيق المكتظ بالسكان المسمى "غزة"، والتي دفعها شعبنا من خيرة قادته وأبنائه في الضفة والقطاع.

صـــحيح أن المقاومة أصـــبحت قوة حقيقية على الأرض يحسب لها حساب في المعادلة الإقليمية والدولية، وأنها بدأت تحقق إنجـازات، وتمنع العـدو من تحقيق أهـدافـه في أي عـدوان، ولكن يجب أن نستحضـر دومًا أن الصـراع الدائر اليوم هو على مستقبل

القدس والضفة الغربية التي هي قلب المشروع الصهيوني، وأمامنا طريق شاق وطويل يحتاج إلى صبر وثبات ومثابرة، وتضحيات كبيرة.

في فلسطين، رغم الجراح والحصار والمؤامرات تفتح أمامنا فرصة قد لا تتكرر. لكن في البداية يجب أن نتفق على الهدف والغاية من نضالنا، لأن تحديد الهدف هو الذي يحدد طبيعة المسيرة التي نختارها. وفي ضوء ذلك الهدف نعي التحديات الراهنة، وكيفية الاستجابة لها.

إذا كان الهدف هو تحرير فلسطين، فإن وسيلتنا هي المقاومة بكل أشكالها. ويترتب على ذلك أن ننفض أيدينا من مشروع التسوية الذي يستنزف شعبنا على كل المستويات، وننفض أيدينا من سياسة البحث عن شرعية لدى الغرب الذي لا يعترف سوى بشرعية القوي والأمر الواقع.

والهدف الكبير بطبيعة الحال يحتاج إلى وقت، وجهد أكبر من طاقة فصيل بعينه، وأكبر من جهود مجموع الفصائل الفلسطينية، بل وأكبر من إمكانات مجموع الشعب الفلسطيني. وعندما نتحدث عن تكامل الجهود في فلسطين، فهذا يعني الاتفاق على رؤية وبرامج وخطط عمل تتجاوز غرفة عمليات مشتركة لفصائل المقاومة، وصولاً إلى قيادة موحدة لمشروع المقاومة.

ويتوجب علينا دعم ومباركة أية خطوة في هذا الاتجاه، والشك في دوافع أية خطوة أو مناخ يعرقل هذا التوجه.

وظيفتنا في الوقت الذي نراكم فيه القوة، ونواصل الاستعداد، تبقى استمرار الاشتباك مع العدو على مدار الوقت، بأشكال ووتيرة تحددها قيادة المقاومة. وذلك حتى تبقى شعلة المقاومة متقدة في النفوس، ونعطي الأمل للشعب والأمة، ونراكم الخبرات، ونواصل استنزاف العدو ومنع استقراره، وإشغاله عن مواصلة برامجه في الاستيطان والتهويد.

إن حماية خيار المقاومة، وممارسته في كل الأحوال، وتوحيد الصفوف عليه، وبناء الوحدة على أساسه، هو ما يمهد الطريق لإنجازات حقيقية على الأرض. إن أي تسكين للصراع مع العدو (الهدنة الطويلة)، وتحت أية ذريعة، هو في صالح العدو الذي يمتلك الأدوات والسياسات لاستمرار سرقة الأرض، وبناء المستوطنات. إن السيطرة على الأرض، والاستيطان عليها، يمثل جوهر الصراع في فلسطين.

إن طول فترة الهدنة يسبب الاسترخاء، حيث تخبو شعلة المقاومة في النفوس. وإن الهداية لطريق الحق، وإنجاز التحرير، تتم في أتون المعارك ومواصلة الجهاد، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت، ٦٩).

ب- عربيًّا:

عندما انسحبت جيوش الاستعمار الغربي من العالم العربي والإسلامي، ونشأت الدولة الوطنية، حيث حرص المستعمر الذي رسم خارطة هذه الدول وحدد حدودها، أن يترك خلفه قنابل موقوتة من مشاكل حدودية، وانقسامات طائفية وعرقية ومذهبية، وأقليات وقوميات وأيدلوجيات مختلفة في كل مكان، يمكن أن تنفجر في أي وقت، وفق سياسة المستعمر الذي خرجت جيوشه، وبقي تأثيره وارتباطه وتدخله بكل الأشكال.

الاستقلال كان شكلاً لا أكثر، أما أن تحدد هذه الدول سياستها الخارجية وفق مصالحها، أو تملك اقتصادها وثرواتها، أو تصنع سلاحها وغذائها، فهذا كان يستدعي مواجهة وإجهاض أية محاولة للاستقلال الحقيقي لأي قطر، والتآمر عليه، لتبقى جميع الأقطار ضعيفة مرتهنة للغرب، ومحتاجة لمساعدته، ولم تفلت أية دول إسلامية من هذه التدخلات.

وعندما تشكلت الجيوش الوطنية تدربت في الغرب، وتسلحت بسلاح الغرب، وفق إشرافه وقيوده، وبقيت رهينة لإرادته، باستثناء محاولات غير جادة للمناورة بين الغرب وبين الاتحاد السوفييتي في فترة الستينات والسبعينات من القرن الماضي، بعيدًا عن أية محاولة للنهضة. وبقيت الجيوش في أغلب الحالات في مواجهة شعوبها،

وقمع القوى الحية فيها، وصولاً إلى التدخل في الشؤون السياسية والمشاريع الاقتصادية في البلاد، بعيدًا عن مهمتها الأساسية التي أنشئت من أجلها، في حماية الوطن والدفاع عن حدوده.

وكل ادعاءات الدول حول العروبة والاستقلال وتحرير فلسطين، دعاوى يدحضها الواقع البائس المرير، والصراعات البينية بين الدول العربية، والتخلف الداخلي.

إنّ تحالف جيوش خمس دول عربية تحت قيادة الجيش الأمريكي لغزو دولة عربية أخرى (في حرب الخليج الثانية)، أعادنا إلى تحالفات دويلات الطوائف.

وإنَّ التحالف مع الكيان الطارئ "إسرائيل"، عدو الأمة المركزي والمباشر والمستمر، والتي أطماعها لا حدود لها، وجرائمها لم تتوقف ولم تستثنِ أحدًا، وتدخلاتها لا تنقطع، ضد أعداء وهميين، هم جزء من الأمة، يجمعها بهم تاريخ وثقافة متقاربة، وجزء من الإقليم منذ آلاف السنين، وأخيرًا التطبيع مع "إسرائيل" ضد الشعب الفلسطيني، ومقاومته التي صنفت عند بعض الدول العربية إرهابًا، يعيدنا إلى خيانات ملوك الطوائف.

لم تقاتل الأنظمة العربية من أجل فلسطين، وإذا أمكن اعتبار حرب عام ٤٨ بكل ملابساتها هي من أجل فلسطين، فإن بقية الحروب لا يمكن اعتبارها كذلك، سواء عدوان الـ٥٦، أو عدوان

الــ٦٧، وحتى حرب ١٩٧٣ التي مهدت لاتفاق "كامب ديفيد" الذي كســـر كل المحرمات، واللاءات العربية في قمة الخرطوم، ومهد الطريق لتخلي النظام العربي الرسمي عن فلسطين.

وإنَّ كل الادعاءات بأن الدول العربية قدمت وضـــحت من أجل فلسـطين هي دعاوى لتبرير تخليها عن القضـية الفلسـطينية والشعب الفلسطيني، ولم يقف الأمر عند ذلك بل تعداه عند البعض للتشـكيك بالنضـال الفلسـطيني وجدواه، والعداء له، والتحالف مع العدو المحتل المستمر في عدوانه.

لقد فشـــل النظام العربي، بما فيه م.ت.ف، في النهضـــة والاستقلال وتحرير فلسطين، لأنه لم يدرك طبيعة العدو، ولا عمق تحالفاته، فضـــلاً عن أن يدرك أهدافه في فلســطين والمنطقة. ولم يشكل النظام العربي أي تحدٍّ حقيقي، لا للاستعمار ولا لإسرائيل، ودخل المعركة وهو مهزوم على مستوى العقيدة والتقنية على السواء.

منذ البداية، فشل المشروع العربي الذي اعتمد على وعود من المستعمر البريطاني في دولة عربية واحدة، وأسلمنا هذا الفشل إلى ٢٢ دولة قطرية تخلت عن فلسطين بدعوى الحفاظ على مصالحها القطرية.

وفي خط موازٍ، أعطى القرار الوطني الفلســطيني المســتقل غطاءً للنظام العربي المتهاوي، للتخلي عن فلســـطين ونزعها من

بعدها العربي والإسلامي.

بداية التخلي كانت في اتفاق "كامب ديفيد" الذي أسلمنا إلى "أوسلو"، فـ"وادي عربة"، وأخيرًا اتفاقات "أبراهام" –الفضيحة– التي أوصلتنا إلى قاع ما بعده قاع.

وهدف استعادة فلسطين الذي رُفع عام ٤٨، تم استبداله بإزالة آثار العدوان عام ٦٧ (أي التسليم بضياع فلسطين ٤٨)، ثم التفاوض على حدود الـ٦٧ في "كامب ديفيد" و"أوسلو"، ثم القفز عن حدود ٦٧، وعن "المبادرة العربية" التي أعلنت في بيروت ٢٠٠٢، إلى التحالف مع العدو في اتفاقات "أبراهام". ومع ذلك، فإن كل الاتفاقات مع "إسرائيل" لم تصنع سلامًا، ولا استقرارًا في المنطقة العربية، وعمقت التوتر والانقسام الداخلي، وأفقدت الشعوب العربية الثقة بالحكام وبالنخبة السياسية، وزادت من تدخل "إسرائيل" في الشؤون الداخلية للدول.

في الوقت الذي انهارت فيه الأنظمة التي لم تحارب يومًا، فإن الشعوب العربية والمسلمة، ورغم الجراح والنزف المستمر، أثبتت أنها في قلب الصراع على فلسطين، وأنها تمتلك حسًّا مرهفًا، ووعيًا تاريخيًا أكثر من كل السياسيين والمسؤولين والمثقفين في بلادها، وأنها تعتبر فلسطين قضيتها الأولى، وكل محاولات تغريبها أو إلهائها في هموم الحياة وقضاياها الوطنية باءت بالفشل.

إن إعادة البعد العربي والإسلامي للقضية الفلسطينية يتم أساسًا على مستوى الشعوب والقوى والأحزاب الوطنية، وليس بالضرورة أن نلتقي على جميع الأمور، ويكفي أن نبحث عن القضايا المشتركة، وهي كثيرة.

في خط موازٍ، بدأت عملية استلاب روح الأمة الذي هو دين الإسلام، والذي يمثل دين غالبية شعوب الأمة، وثقافة الأقلية المسيحية فيها، واستلاب عقل الأمة الذي يمثل القدرة على فهم الواقع وتحدياته، والإبداع في مواجهتها، بدل التقليد الأعمى للغرب، واستنساخ تجربته دون فحص أو تمحيص. وكان ذلك عبر الاستشراق والتغريب الذي أنشأ طبقة من رجال الفكر والسياسة ترى في الغرب المثال والقدوة، وتتنكر لعقيدة الأمة وثقافتها وتاريخها، وبذلك تفقد ليس فقط سياستها بل وتفقد عقلها، لأن سلامة عقل الجماعة تكمن في استمرار تراثها وتقاليدها، وأي قطع مع هذا التراث يؤدي حتمًا إلى رد فعل عصابي، كما كان حال العلمانية العربية اللبرالية منها والاشتراكية، على حد سواء، والتي قطعت مع تاريخ الأمة وتراثها، ونقلت التحدي من مجال العلوم والتقنية إلى مجال الفكر والعقيدة والأدب(١)، وانخرطت في صراعات داخلية تركت ندوبًا غائرة في جسد الأمة.

---

(١) كما أشار توفيق الطيب في دراسة "ما بعد النكبتين".

إنَّ شـــعوبًا مختلفة نالت اســـتقلالها بعد الدول العربية حققت نهضـــتها، ومنها شـــعب اليابان الذي حقق تقدمًا واســـعًا في مختلف المجالات، عندما حصر التحدي في مجال العلوم والتقنية.

لقد شـــهدنا من يومها هبوطًا عربيًّا لا يتوقف في مجال القيم والأدب والذوق العام، تجاوز التقليد إلى التفاهة التي هي صـــــناعة تشـــــرف عليها الدولة، لتســـــهيل اســـــتغفال الناس، وتنويم الطبقة الوســـطى. وكم من فضـــائيات وإذاعات وصـــحف ومجلات ومواقع تواصـــل اجتماعي وصـــحفيين وكتبة وفنانين تخصـــصـــوا في نشـــر الفساد والشذوذ والتفاهة.

نافذة الفرص

في ضوء نتائج الصراع الدولي الدائر في أوكرانيا اليوم، وما يصاحبه من أزمة الطاقة في أوروبا، وأزمة الغذاء العالمية، والذي سيترتب على نتائجه توزيع القوى والتحالفات التي ستتحكم في العالم في العقود القادمة، يركز الغرب جهوده على شرق وجنوب شرق آسيا، حيث المنافسة الحقيقية مع الصين على أشدها.

أما فيما يسمى بالشرق الأوسط وشمال أفريقيا، فالغرب يبدي حرصًا كبيرًا على تسكين الأزمات، بما فيها التهدئة في ملف الصراع مع "إسرائيل"، والعودة للاتفاق النووي الإيراني.

يتنازع الشرق الإسلامي اتجاهان في التعامل مع الأوضاع الجديدة:

الاتجاه الأول تمثله إيران وتركيا بشكل أساسي، كل منها تمثل رؤية وجدول أعمال مختلف، وهي تسعى، كل بطريقتها ووفق سياق تطورها المختلف، لأن تحجز لها مكانًا مهمًّا في عالم ما بعد الحرب، وهي تسعى منذ وقت طويل لبناء استقلالها ونموذجها، والاستجابة للتحديات التي تواجهها.

محطة الاتفاق النووي بين الغرب وإيران مهمة بالنسبة لإيران، لاجتياز أزمتها الاقتصادية، ومحطة انتخابات ٢٠٢٣ محطة مهمة أمام تركيا، لاجتياز رهان الغرب على المعارضة.

الاتجاه الثاني تمثله الدول العربية وإن بدرجات متفاوتة، وهو اتجاه الاستسلام للتبعية للغرب و"إسرائيل" في المنطقة، وعدم القدرة على اتخاذ مبادرات لتجاوز أزمة التبعية. ورغم الثروات الهائلة التي تملكها، فإنها لا تملك التحكم بهذه الثروات، وتسخيرها في بناء نهضتها، لأنها أساسًا لا تملك رؤية ولا مشروعًا، ولم تحدد هدفًا، وهذه الثروات تعود إلى بنوك الغرب ثمن سلاح وغذاء ورفاهية شكلية، لتدور في ماكينة النظام الرأسمالي الدولي.

إن النهضة كما الحضارة لا تحدث طفرة، ولا تحدث دون مقدمات، وما لم تبدأ دولة عربية مركزية في التصالح مع شعبها، والتفاعل مع تاريخها وثقافتها وعقيدتها، والتواصل مع محيطها العربي والإسلامي، فلا أمل بأن يحجز العرب لهم مكانًا في عالم الغد.

فقدنا فلسطين في سياق صراع الأمة الحضاري مع الغرب، ونستعيدها في نفس السياق.

قبل سبعين عامًا كانت كل الأمة في انهيار شامل تخضع لإرادة المستعمر، وتعمل وفق أوامره. اليوم أجزاء مهمة من الأمة تسعى بكل وعي وقوة لبناء استقلالها ونهضتها، وتحقق إنجازات

واسعة في ذلك. الشعوب العربية والإسلامية، رغم الجراح والنزف المستمر، بقيت عصية على التطبيع والاختراق، تعلن انحيازها لفلسطين، وتعلقها بمسرى نبيها ﷺ في كل مناسبة، وبقيت أبواق الأنظمة معزولة وهامشية.

المقاومة في فلسطين راكمت إمكانات وخبرات، سمحت لها أن تصبح عاملاً مؤثرًا له وزن، ويحسب حسابه في المعادلة الإقليمية والدولية.

وعندما نتحدث عن معركة الأمة وجهود الأمة، نلحظ العلاقة الجدلية بين نهضة الأمة واستقلال أي قطر من أقطارها، وبين العمل على تحرير فلسطين. فصمود الشعب الفلسطيني واستمرار مقاومته هو رصيد لكل الأمة، يعطيها الأمل بإمكانية النهوض والتحرير، كما أن نهضة أي قطر من أقطار الأمة واستقلاله الحقيقي، هو في مصلحة النضال في فلسطين، ورصيد لشعب فلسطين لا يقل عن أية مساعدة.

ومن نافلة القول، أنه لا تتم النهضة والاستقلال بقمع الشعوب ومصادرة حريتها، بحجة تحرير فلسطين، فالذين قمعوا شعوبهم تحت هذا الشعار، لا حققوا نهضة، ولا استقلالاً، ولا تحريرًا.

وعندما تنقسم الأمة والمنطقة إلى محاور متصارعة على النفوذ، نحافظ على فلسطين والقدس، كقضية جامعة للأمة تعلو

على الصـراعات والتجاذبات العابرة، ولا نكون طرفًا في أي صـراع داخلي في أي قطر، أو صـــراعات بين الدول. ومقياس صـــوابية سياسات هذه الدول والمحاور، هو ما تقدمه لفلسطين والمجاهدين فيها، وعلاقات الشـــعب الفلســـطيني ومقاومته تبنى على هذا الأســـاس، ووفق هذه المحددات، دون أن يكون جزءًا من أي صراعات داخلية أو بينية.

نبارك أية خطوة في اتجاه وحدة الأمة، وتســـكين خلافاتها، والتفاهم بين دولها، بعيدًا عن التدخلات الغربية في شـــؤونها، ونشكك في أي توجه، أو مجموعة تستخدم لبث الفتنة والانقسام والحروب داخل الأمة الواحدة.

صحيح أن صراعنا على فلسطين من الصراعات التي لا حل وسط فيها، ويتخذ شكل جولات من الصراع المفتوح، حتى تنضج الأوضـــاع في الإقليم والعالم، ولكن الصـــحيح أيضًـــا أن الشـــعب الفلسطيني ومقاومته في منحنى متصاعد، يحقق إنجازات ويراكم قوة، ينظمها في سياقها الصحيح، وفق فهم الواقع ورؤية المستقبل. ولأن المعركة هي معركة إرادات في نهاية التحليل، فإن الشـــعب الفلســـطيني بات يملك فائض الإرادة والتصـــميم على المواجهة، والاستعداد للتضحية.

وأن "إسرائيل"، رغم قوتها وعنفها، في منحنى هابط، استنفدت

مخزونها البشري في الهجرة، وباتت تلجأ إلى استجلاب الفلاشا – المشكوك في يهوديتهم– من إثيوبيا، لمعادلة الاختلال الديموغرافي، كما استنفدت تماسكها الداخلي، وفقدت قدرتها على ردع الشعب الفلسطيني، وكلما أرادت استعادة قوة الردع تفقد الردع أكثر، حتى باتت هي المردوعة، وإلى حدٍّ ما استنفدت قدرتها على خداع العالم، وبدأت تعلو أصوات بعض المفكرين والسياسيين فيها حول عقدة العقد الثامن في التاريخ اليهودي.

فالعدو الذي يملك أحدث الأسلحة والتكنولوجيا بدأ يتراجع خطوة بعد خطوة إلى الخلف، وفي كل المعارك مع المقاومة يفشل في تحقيق أهدافه أمام فصائل شعبية تؤمن بدينها وتاريخها، وتلتفّ حولها حاضنة شعبية ترعاها وتحميها وتؤمن بحتمية النصر، بعد أن كان يحقق كل أهدافه في مواجهة سريعة وحاسمة في كل المعارك مع جيوش أنظمة لا تؤمن بالأمة، ولا بتاريخها، وتحارب دينها وثقافتها.

أمام فشل "إسرائيل" في القضاء على انتفاضة عام ١٩٨٧، استدارت ١٨٠ درجة، لتعترف –ولو ظاهريًّا– أن للشعب الفلسطيني حقوقًا سياسية في جزء من أرض فلسطين التاريخية يتفاوض عليها.

وأمام ضربات المقاومة الفلسطينية، اضطرت للانسحاب من غزة والتخلي عن جزء من فلسطين التاريخية دون مفاوضات،

تحول هذا الجزء بعد سنوات قليلة إلى قاعدة للمقاومة تصنع سلاحها، وتصبر على جراحها، وتعيد رسم معادلة المواجهة الوطنية الشاملة التي ترسخت في معركة "سيف القدس".

كل جيل فلسطيني يصبح أكثر صلابة وإصرارًا وعزيمة وقدرة على التضحية، وإذا عجزت فصائل المقاومة في تأطير شبابه يخرج الشباب فرادى في ظاهرة "الذئاب المنفردة" يقاوم العدو بما تيسر من أدوات.

وكل جيل في "إسرائيل" يصبح أكثر جبنًا ورعبًا، وليس لديه استعداد للتضحية، ينشد الراحة والمتعة، ويتهرب شبابه من التجنيد، ويتهرب المجندون من العمل في الوحدات القتالية.

عندما تختل موازين القوة، فإن إنجازات القوي تصبح بطعم الهزيمة، وتضحيات الضعيف لها طعم النصر.

اليوم نراكم إنجازات وإرادة وإمكانات وخبرة، ولا يمكن ردعنا رغم ضعفنا، ويراكم العدو جبنًا وارتباكًا، ويمكن ردعه رغم قوته.

كيف نحافظ على منحنى الصعود ونواجه التحديات، هذا هو الاختبار الأكبر الذي يواجه شعبنا وأمتنا اليوم:

– في فلسطين، كيف يمكن أن نجعل لحياتنا معنى إذا تنكرنا للمقاومة، وأمامنا تجربة السلطة على مدى ثلاثين عامًا.

– في الإقليم، كيف يمكن أن نتجاوز أزمتنا وتخلفنا، ونبني

اســتقلالنا ونهضــتنا، إذا تنكرنا لتراثنا، وهذه تجربة الدولة القطرية أمامنا.

– وعلى مستوى الأمة، كيف يمكن أن نستعيد دورنا، ونورث حضــارتنا التي هي حياتنا –التي تدوم– إلى الجيل القادم، ونمنحها مغزى يسمو على الموت.

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾

(الروم، ٦٠)

المحتويات

مقدمة ٥
تحدي الحضارة الغربية ٧
التحديات الراهنة ١٧
الصراع على فلسطين ٢٥
أولاً: جذور النكبة ٢٧
ثانيًا: تطور الأوضاع في المنطقة والعالم ٣٧
نافذة الفرص ٥٥
المحتويات ٦٣